(٣١)

الإلحاد ليس تطورًا

العدد (٩٨) صفر (١٣٩٣هـ) مارس (١٩٧٣م)

ربما شك بعض الناس في حقيقة الدين الذي يعتنقه، أو في جدواه عليه!

فإن ساور هذا الخاطر أحدا من خلق الله، فإن العربي آخر امرئ يعرض له هذا الظن، بل يقرب من المستحيل أن يساوره!

ذلك أن فضل الإسلام على العرب كفضل الضياء والماء على الزرع..

لا أقول: أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، بل أقول: أوجدهم من عدم، وجعل لاسمهم حقيقة، وأقام بهم دولة وأنشأ حضارة!

قد تكون بعض العقائد عقاقير مخدرة للنشاط البشري!

لكن الاسلام لما جاء العرب شحذ هممهم، وأنار عقولهم، ووحد صفهم، وطار بهم إلى آفاق مادية وأدبية لم يحلم بها آباؤهم، ولا تخيلها أصدقاؤهم أو أعداؤهم!

مضى العرب في طريق المجد الذي شقه الإسلام لهم، فعرفهم العالم وكان من قبل يجهلهم، وأفاءوا على ماضيه القريب ما لا ينكره إلا متعصب كنود!

وارتبطت مكانة العرب الذاتية والعالمية بهذا الدين، فهم يتقهقرون إذا تخلوا عنه، ويستباح حماهم! وهم يرتقون ويتقدمون إذا تشبثوا به، وتحترم حقوقهم!

على عكس ما عرف في أمم أخرى لم تستطع التحليق إلا بعدما تخففت من مواريثها الدينية، كلاّ، أو جزءا!

وقد استطاع مسلمو الجزائر في هذا العصر أن يستخلصوا حريتهم من براثن عاتية، وأن يدفعوا ثمن هذا الخلاص مليونا ونصفا من الشهداء!

وما ينبغي تقريره في هذا المجال أن الاسلام وحده كان وقود هذا الكفاح القاسي، الإسلام لا القومية!

فلما ظفر الجزائريون باستقلالهم بدأوا يستعيدون عروبتهم التي فقدوها خلال قرن وربع، وضعت مشروعات لجعل الأفراد والجماعات ينطقون بالعربية ويتفاهمون بها، بعدما كادت هذه اللغة تبيد أمام زحف الفرنسية وسيادتها في الشوارع والدواوين!

إن الإسلام بالنسبة إلى العروبة ولي نعمتها وصانع حياتها، وقد اعترف مسيو جارودي- وهو شيوعي فرنسي عاش ردحا من الزمن في جبهة التحرير الجزائرية- .

- الإسلام ولي نعمتَنَا وصَانع حضَارتنا
- سَيبقى الليل حتى يحمل العَرب رسَالة الإسلام

اعترف بأن الدين وحده هو الذي أوقد شرر هذا الكفاح العزيز الغالي، وأن الإسلام يستحيل أن يوصف بأنه مخدر للشعوب!

والإسلام لا يجعل من العرب شعبا مختارا يفضل غيره لسلالة معينة أو دم خاص، كلا كلا، إن الله اختار لعباده تعاليم راشدة وشرائع عادلة، ثم وكل إلى العرب أن يحملوا هذه التعاليم والشرائع، ليعملوا بها وليعلموها من شاء.

والله يأبى كل نعرة عنصرية أو استعلاء قومي.

وينصح الأمة كلها بالطاعة والإصلاح ويتهدد عدوها بالطرد والهوان،

ثم يأمرها بالمقاومة ورفض الاستسلام، وسيكون المستقبل لها إن هي أبقت حبلها موصولا بربها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا

تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (**محمد: ٣٣، ٣٤، ٣٥**).

إنها مبادئ محددة، تنطلق الأمة منها، فتكون بعين الله، أو تند عنها فيدعها الله لنفسها!

بالوفاء لهذه المبادئ تصعد، فإن فرطت هوت.. ولذلك يقول الله للمنهزمين في أحد ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ (**آل عمران: ١٣٩**) فالعلو والتدبر في هذه الآيات الثلاث يعطي فكرة بينة أن تفضيل الأمة هو تفضيل سلوك ومنهج، لا تفضيل دم أو لون.. وأن الإيمان الشريف والاستقامة الواضحة أساس العزة المنشودة.. وأنه مهما لاقى المسلمون من صعاب وهزائم فلا يجوز أن يقبلوا سلما مخزية، ولا أن يعطوا الدنية من أنفسهم.

ولهم أن يركنوا إلى الله، ولن يذل جانبهم، ما آمنوا به وعملوا له.

واليقظة العزيزة التي صنعها الإسلام وهو يبني الأمة يمكن أن نتابعها من مرحلتين:

الاولى في العهد المكي، يوم كان المسلمون قلة تتوقع الضيم ويتجرأ عليها الأقوياء! لقد أمر المسلمون إبان هذه المحن أن يثبتوا ويشمخوا بحقهم، ويتنكروا لكل هوان ينزل بهم، ويطلبوا ثأرهم ممن اعتدى عليهم، فإن عفوا فعن قدرة ملحوظة لا عن ادعاء مرفوض!

انظر كيف وصفت سورة الشورى المكية طلاب الآخرة الذين يؤثرون ما عند الله على هذه الدنيا، إنهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ

بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ **(الشوري: ٣٨، ٣٩، ٤٠)**.

فطلاب الآخرة- كما وصفتهم السورة المكية- ليسوا الذين يعيشون في الدنيا أذنابا مستباحين، أو ضعافا مغموصين، أو كما يقول الشاعر يصف قوما تافهين:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستأمرون وهم شهود!

لا، لا، إن هؤلاء المؤمنين بالدار الآخرة يفرضون أنفسهم على هذه الحياة الدنيا، ويكرهون العدو والصديق على أن يحسب حسابهم ويزن رضاهم وسخطهم، ويعلم أن نتائج العدوان عليهم أذى محذور وشر مستطير!

لأنهم إذا بغي عليهم ينتصرون، ويلطمون السيئة بمثلها!

وليس هذا بالنسبة إلى الحق الأدبي للجماعة كلها، بل هو كذلك بالنسبة إلى حق الفرد في ماله الخاص.

فقد سئل النبي ﷺ: أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟

قال : لا تعطه مالك!

قال : أرأيت إن قاتلني؟

قال : قاتله!

قال : أرأيت إن قتلته؟

قال : هو في النار؟

قال : أرأيت إن قتلني؟

قال : فأنت شهيد![1]

(١) رواه مسلم برقم (٣٧٧).

هل هذه الوصايا هي التي تخدِّر الأفراد والجماعات؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

فإذا تجاوزنا العهد المكي إلى العهد المدني نجد توجيها ينبع من هذه الروح الأبية الشامخة.

إن الهوان جريمة، وقضاء الحياة في ضعف واستكانة مرشح أول للسقوط في الدار الآخرة

ومن هنا أثبت القرآن الكريم هذا الحوار بين ملائكة الموت وبين الذين عاشوا في الدنيا سقط متاع، وأحلاس ذل!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (**النساء: ٩٧**).

والهجرة المفروضة هنا هي التحول من مكان يهدر فيه الإيمان وتضيع معالمه إلى مكان يأمن فيه المرء على دينه.

ولكن حيث استقرت دار الإسلام، فلا تحول، وإنما يبقى المسلمون حيث كانوا ليدافعوا عن ترابهم ذرة ذرة، ولا يسلموا في أرض التوحيد لعدو الله وعدوهم.

والآية تحرم قبول الدنية وإلف الاستضعاف، وتوجب المقاومة إلى آخر رمق.. ومما يؤكد هذا المعنى أن القرآن أحصى الطوائف التي تُعذر في هذا التمرد المطلوب على قوى الشر.

ومع استثنائها فإن مصيرها ذكر معلقا على رجاء المغفرة والعفو لا على توكيد ذلك!

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ

سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ (النساء: ٩٨، ٩٩).

والتعبير بعسى هنا مثير للقلق، وهي إثارة مقصودة حتى لا يقعد عن مكافحة المعتدين من يقدر على إلحاق أي أذى بهم مهما قل.

إن المؤمن لن يكون أبدا ثالث الصنفين اللذين عناهما الشاعر في قوله:

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان، عير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشق فلا يرثى له أحد!

المسلم لا يقبل الحياة على أية صورة وبأي ثمن، إما أن تكون كما يبغي، وإما رفضها وله عند ربه خير منها وأشرف!

ومن صيحات الكرامة والإباء قول رسول الله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»!

وفي حديث آخر «من قتل دون مظلمته فهو شهيد!».

هل رأيت استنهاضا للهمم، واستنفارا للنضال، واستثارة للذود عن الدماء والأموال والأعراض، أحر من هذه المبادئ؟

أيمكن في منطق العقل والإنصاف أن يوصف هذا الدين بأنه مخدر للشعوب؟ ألا شاهت الوجوه!

وربما اتصل بهذه التهمة المتهافتة تصور البعض أن الدين رباط مع الماضي، وأن التطور ينافيه..

ونتساءل نحن: ما هذا التطور؟ إن الإلحاد ليس تطورا! بل هو ترديد لكفر الصغار من جهلة القرون الأولى.

من ألوف السنين وقفت قبيلة عاد من رسولها موقفا كأنما لخصت فيه كل ما يقال في هذا العصر على ألسنة الشطار من دعاة الإلحاد: ﴿ أَيَعِدُكُمْ

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (**المؤمنون: ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨**).

إن التحلل من قيود الدين وفضائله ليس تجديدا ولا ابتكارا، بل هو خنوع للغرائز الدنيا التي أنامت ألوف الخلعاء والخبثاء من عشرات القرون، وجعلتهم يحيون وفق شهواتهم وحدها! فأي ارتقاء في ذلك المسلك الرخيص..؟؟

يا شباب العرب، اقدروا التراث النفيس الذي شرف الله به أمتكم، وأقام عليه تاريخكم.

إن الدين الذي تنتمون إليه رفع مناركم قديما، وهو وحده القدير على استنقاذكم من ورطات هذه الأيام!

لا تنخدعوا بمن يزهدكم في رسالتكم، فهو يرسم لكم طريق الموت!

إن أمما أخرى لاذت بعقائد أردأ جوهرا وأسوأ منهجا، واستطاعت أن تغالبكم وأن تنال منكم، فعودوا سراعا إلى دينكم وثقوا أنه وحده العاصم من الغرق.

كم يحزنني أن أرى شبابا عربيَّ النسب أعجمي الفكر واللغة والضمير!

لا يستند إلى عقيدة، ولا يعتز بتاريخ، ولا يستظل براية، ولا يسير إلى غاية، خدعوه فقالوا: الجيل الصاعد.. ولو صدقوه لقالوا: الجيل الضائع الهابط..

أنظر إليه مليا، ثم أهمس في حسرة: إنك بهذا الشرود والفراغ تصنع الهزيمة تلو الهزيمة، وتجر الكارثة بعد الكارثة!